المرأة في شعر الشابيّ :

المرأة بالنسبة للشابي هي الحياة الروحانية ورمز الحياة المتحررة من عاهاتها وشوائبها ، وحيثما رنا الشاعر في الطبيعة تطالعه المرأة ، فكانت الحبيبة بالنسبة إليه منحلّة في قلب الطبيعة ، ومترائية أبداً في مظاهرها حتى توحدت الطبيعة والمرأة بوحدة نهائية لا انفصام فيها ، ذلك أن الشابي كان ابن نفسه وبيئته ولم تكن المرأة في بيئته إلا سراً مكتوماً ، فتحولت بذلك إلى حلمٍ يغمر الطبيعة وسائر معاني الوجود .

وتصوير الشابي للمرأة إنما كان محاكاةً للطهر والعفة والجمال ، وبعيد كل البعد عن شوائب الجسد ، يقول في قصيدته **"صلواتٌ في هيكل الحب"** : [١]

أنتِ أنتِ الحياةُ في قدسِهَا السَّامي وفي سِحْرِهَا الشَّجيّ الفريدِ
أنتِ أنتِ الحياةُ في رَّقةِ الفَجْرِ وفي رَوْنَقِ الرَّبيعِ الوليدِ

---

١ ديوان ٧٢ ص ٣٠٣ .

أنتِ أنتِ الحياةُ كلَّ أوانٍ ، في رواءٍ مِنَ الشَّبابِ جَديدِ
أنتِ دنيا من الأناشيدِ والأَحْلَامِ والسَّحرِ والخَيالِ المُريدِ
أنتِ فوق الخيالِ والشّعرِ والفَنِّ وفَوقَ النُّهى وفوقَ الحدُودِ
أنتَ قدسي ومَعبدي وصَبَاحِي ورَبيعي ونَشْوَتي وخُلُودِي
يا ابنة النُّورِ إنّني أنا وَحدِي مَنْ رأى فيكِ روعةَ المَعْبُودِ
فدعيني أعيشُ في ظلِّكِ العَذْبِ وفي قُربِ حُسْنك المشْهودِ
عيشةً للجمالِ والفَنِّ والإِلْهَامِ والطُّهرِ والسنَى والسُّجودِ
عِيشَة النَّاسِكِ البَتُول يناجي الرَّب في نَشْوةِ الذُّهول الشَّديدِ

وللحبّ جدولة الذي كان موعداً له مع الحبيب يرتشف منه الأحلام ويصغي إلى أغاريد الحياة وأناشيد الخلود وإلى العذاؤى ينشدن فيها أغاني الروح، والشاعر في قصيدة **"جدول الحب بين الأمس واليوم"** يرتسم مثالية للحب من خلال الطبيعة المثالية الشفافة كاسياً الحب والطبيعة كليهما من أوهامه وأحلامه .

ولقد لقي على ذلك الجدول الرُّومانسيّ فتاة تلامحت له لحظة وتوارت . إلى أين توارت ؟ لعلها عادت إلى منزلها أو بلدتها إلا أن الرومانسيّ يأنف من التقارير الواقعية المباشرة حسب تقدير الشاعر ، ولا يمكن أن تقطن حبيبته المنازل وتقيم في البيوت ، هي امرأة من لحم ودم ، والمرأة التي يحبها الشاعر هي امرأة روحية وحورية أو عروس من عرائس الطبيعة الغامضة . ولذلك فإنها تقيم حيث تقيم أحلام الشاعر خلف الغيوم ، تقيم بين سائر العذارى اللواتي يرتلن وينشدن واللواتي يتجولن بين النجوم .

يقول في قصيدته "**جدول الحب بين الأمس واليوم**" : [١]

هُوَ جدولُ الحبِّ الذي قَدْ كانَ في قَلْبي الخَضِل
بمر اشِفِ الأَحْلَامِ مُنْطَلِقاً يسير على مهل
يتلو على سَمعي أغاريدَ الحياةِ الطَّاهِرَة
ويثيرُ في قلبي أناشيدَ الخُلُودِ السَّاحِرَة

---

[١] ديوان ٧٢ ص ١٥٢ .

تقفُ العذارَى الخالداتُ عرائسُ الشّعرِ البديعْ
في ضفَّتيهِ ، مُردِّداتٍ نغمةَ الحلْمِ الوديعْ
يلمسنَ قيثارةَ الأحلامِ ، أوتارَ الغزلْ
فتفيضُ ألحانُ الصَّبابةِ عذبةً مثلَ الأمَلْ
وتطيرُ بالبَسَمَاتِ والأنغامِ أجنحةُ الصّدَى
في ذلك الأُفقِ الجَميلِ وذلك النَّسَمِ الرُّخا
وهناكَ ، حيثُ تعانِقُ البَسَمَاتُ أنغامَ الغَزّلْ
يتمايلُ الحُلُمُ الجميلُ كبَسْمَةِ القَلْبِ الثَّمِلْ

* * * * *

هو جدولٌ قد فَجَرَّتْ ينبوعَهُ في مُهْجَتي
أجفانُ فَاتِنَةٍ أرتنيهَا الحياةُ لشقْوتِي
أجفانُ فَاتِنَةٍ تراءتْ لي على فجرِ الشَّبَابِ
كعروسةٍ مِنْ غَانياتِ الشّعرِ في شَفَقِ السَّحَابِ
ثم اختفتْ خلفَ السَّماءِ وَرَاءَ هاتِيكَ الغُيُوم

حيثُ العذارَى الخالداتُ يمِسْنَ مابين النُّجوم
ثم اختفتْ أوَّاه ! طائرةً بأجنِحَةِ المَنُون
نحو السَّماءِ ، وهَا أنا في الأَرْضِ تمثالُ الشُّجُون

فالرومانسي قلما يعشق امرأة من لحمٍ ودمٍ ، تلك امرأة مظلمة آسنة -حسب رؤية الشاعر - ، والمرأة التي يحبها تأتي من غيب تقيله عثرته وترد روحه المتلهفة وتخلق في نفسه الحنين الهالع أبدا ، لذلك كانت الحبيبة التي تغنى بها الشابي امرأة لا اسم لها ولا هوية وليست معروفة في بيئته وبين صحبه ، إنه هو الذي ابتدعها من أحلامه كسائر الرومانسيين ، وتعبَّد لها في محراب ذاته ومحراب الطبيعة ، وظل الوجد يخفق فيه إليها على غير طائل .

وقد تباينت الآراء حول المرأة عند الشابي [١] هل هي المرأة الحسية التي هي من لحم ودم ؟ أم هي المرأة التي نسجها من خياله

[١] يقول محمد الحليوي : إن المرأة التي يقصدها الشابي هي امرأة خيالية غير حسية ، أما زين العابدين السنوسي فيذكر أن المرأة هي امرأة حسية من لحم ودم .

لا اسم لها ولا هوية يرويها من فائض حنانه ويغمرها بفريد شعره ويرى فيها عالما من المثل بعيدا كل البعد عن نجاسة المادة .

وبما أن الحديث يدور حول المرأة وشاعرية الشابي الرومانسية فإنني أرى أن المرأة التي كان يترقبها الشابي ويرمز لها في أشعاره هي امرأة روحية وشعوره اتجاهها شعور طاهر ، وغزله فيها عفيف يتناسب مع امرأته الروحية .

وذكر بعض الدارسين [١] أن الشابي كان غير ناجح في زواجه مما يجعلنا نقول : إن صورة المرأة الروحية وصفاتها التي تتميز بها عن غيرها من النساء الحسيات الموجودات في عالم المادة كل هذا ربما كان سببا من أسباب فشل زواجه، إذ أن اختلاف الواقع مع شاعريته الحالمة باللاواقع واللاموجود خلق في نفسه شيئا من نكصان الذات وانتكاسها مما جعلنا نأسى على حياة هذا

---

[١] ابو القاسم كرو ، زكي أبو شادي .

الشاب الذي لم يتمتع يوما بمرح الشباب وفرحه ، ولكننا في الوقت نفسه نستمتع نحن بوافر شعره العذب .

ومن مجموع الديوان يتضح لنا أن عدد القصائد التي قالها الشابي في المرأة حوالي تسع عشرة قصيدة [١] ، وله قصيدتان في الأم هما : **"قلب الأم"** و **"حرمة الأمومة"** [٢] .

---

[١] تتداخل قصائد الحب مع القصائد التي قيلت في المرأة مما جعل العدد تقريبيا .

[٢] ديوان ٧٢ ص ٣٢٥ ، ديوان ٧٢ ص ٤٧٣ .